# الصوفية والموسيقي

## للسيد محمد الغنيمى التفتازانى

---

لانريد أن نتوسع فى هـذه العجالة فنسرد تاريخ الموسيقى من عهد قدماء اليونان الذين يعتبرهم المؤرخون الطبقة الأولى من وضاع قواعـدها ومؤسسى أصولهـا ، ولانريد كذلك أن نسرد على القارىء الكريم أوجه الخلاف بين المؤرخين فى حقيقة تاريخ الموسيقى ،فقد يطول بنا المقام دون أن نوفى البحث حقه من جميع نواحيه

ولكن الذى نريده أن نمر بمبحثنا على أنظار القراء ، قراء المعرفة ، الكرام كما يمر شريط السينما ، بأن نبرز لهم صورة من صور ماضى الموسيقى الشرقى

ومعلوم أن الموسيقى حلت ضيفا مرعى الخاطر مكرم الجانب على الصوفية والمتصوفة فى تكاياهم وزواياهم زهاء الخمسة قرون ، فقد حاربها بعض جامدى الفقهاء منذ غلبت الروح الفقهية المحضة على الرأى العـام الأسلامى ، إلى أن ظهر بين الفقهاء من يقول بحل سماع الأغانى ، وكانت باكورة هذه الحركة ظهور رسالة العـالم الفقيه المحدث الشيخ عبـد الغنى النابلسى أحد فقهاء القرن الحادى عشر الهجرى

مرت الموسيقى فى العهد العربى الأسلامى بأدوار ازدهرت فى مدارجها واكتملت نسبيا حتى كانت فنا طريفا شغف به الخلفاء ومن إليهم ، وحيثما ازدهر عهد من عهود المسلمين فى أى قطر من أقطاره ، أحسست بالموسيقى تملك الغرة من جبين ذلك العهد ، ورأيتها فى وضوح سببا من أسباب النهضة وعاملا من عوامـل الازدهار ، ثم هى مظهر من مظاهر الترف والنعـيم الذى كان يشغل أهل ذلك العصر

وأوفى الصفحات تبين هذه الحقائق ، ماأورده صاحب الأغانى وغيره من أشباهه الذين دونوا آثار السلف ليراث الخلف

وبعد فلا أريد أن أفصل هنا مايجب أن يحمل تعريفا بالفن وأبوابه وألوانه ، ولكننى قلت لك من قبل إن عنايتى بما سأقضه عليك ، لا تعدو الصورة السينمائية لصفحة من صفحات ماضى هذا الفن الجميل

تقول كتب الفن إن الموسيقى اسم لعلم من العلوم الرياضية يبحث فيه عن النغمات والمقامات وكيف تؤدى مهمتها من إثارة الشجن أوابتعاث الحزن أوانبعاث الطرب والسرور ، والصوفية بالطبع أقرب الناس إلى هذا التكييف ، فهم فى مواقف خشوعهم يبحثون عما يثير الشجن كوسيلة لاستغراق مشاعرهم ، ثم هم فى خلواتهم يجهدون أن يصل الحزن العميق إلى قرارة نفوسهم ، ثم هم فى جلواتهم ينشدون مايبعث السرور لجلاء صدأ هذه القلوب المكلومة ، ولا نزاع فى أن الموسيقى تحرك الصم الصلاد ، فهى بلا شك معينة العشاق وجامعة شتات القلوب الرقاق

وقد كتب بعض مشاهير الصوفية فى الموسيقى وفنونها ، بل لقداتخذت فى بعض أدوارها وعلى الخصوص فى تركيا وإيران شكلا صوفيا محضا ؛ حتى إنك لتجد مشاهير مؤلفى الفن ونوابغه هنا لك من رجال الطريقة المولويه التى لها المقام الأول بين الطرق الصوفية التى تعتمد على الموسيقى فى إدارة حضراتها ومجالس الذكر فيها

وهذه هى الطريقة الصوفية الوحيدة التى تستجيز العزف بالآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها أثناء مجلس الذكر

أمابقية الطرق الصوفية فأنها تكتفى بأنشاد المنشدين من ذوى الأصوات المطربة العارفين بأصول التوقيع والأنشاد والملمين بفن النغمات

ومن أظرف ما كتبه صاحب سفينة الملك ونفيسة الفلك المرحوم السيد محمد بن اسماعيل بن عمر شهاب الدين عن مدارج السماع قال رحمه الله :

إن الطفل يصغى سمعه إلى ماتغنيه به أمـــه ، و يلغى العويل والصياح ، وماذلك إلا لأنه قد ذهب عنه مايغمه بالطرب والارتياح مع كونه غير مميز وليس من أهل ذلك الحيز ، أما الكامل فأذا سمع طرب ، ومتى طرب طاب ومتى طاب غاب ، و إذا غاب حضر ، ومتى حضر نظر ، و إذا نظر حصل ، ومتى حصل وصل

وقال السيد محمد البكرى رحمه الله :

زمزموا باسمى على العود وانقروا للبسط طارة
وعـــلى منكر قولى فيـه شنوا ألف غارة

وقال بعض المتصوفه :

من ذاق طعم شراب القوم يدريه ومن دراه غدا بالروح يشريه
وذو الصبابة لايسقى على عدد ال أنفاس منه فليس الشرب يرويه
يروى و يظمى ولا ينفك شاربه يصحو و يسكر والمحبوب يسقيه
الرى يظمئه والصحو يســكره والوجد يظهره طورا و يخفيـه
يبدوله السر من أفاق وجهته وليـــس إلا له منه تبديه

بهذه الروح الفتانة استهدف المتصوفة حينا إلى حملات الفقهاء وأشياعهم زمانا طويلا ، وكلما زادهم أولئك من خوف النكير ازداد هؤلاء مضيا مـــع الوجدان والضمير ، فأذا بثروة الموسيقى الشرقية كلها تستودع حصون تكايا المتصوفة وزواياهم ، وإذا بهذه الثروة تخرج من هذه الحصون مصقولة مجلوة بصورتها الحاضرة ، تلك الصورة التى يكفى أن تعرض فيما أخرجه للناس جماعة نادى الموسيقى الشرقى بارك الله فيهم ، إذ لو لا هـــذه الحركة المباركة حركة تأسيس النـادى العظيم ، للبثنا فى مصر أسرى عزف الغواة ومناظر الهـواة ، وللبث مجموع ميراثنا الضخم من الموسيقى الشرقية مبددا لم تصل إليـه يد الجامع المنسق

أما الآن فأننى أحمد الله سبحانه وتعـالى حيث أصبح للموسيقى الشرقية

فى مصر مجمع وناد ومعهد برعاية جلالة مولانا الملك حفظه الله ، توافرت على إدارة هذه المجموعة المباركة قوى فنية فى نفوس كريمة وفقها الله للعمل على حفظ هذه الثروة الضخمة وإحياء موات هـــذا الميراث العظيم ، فبارك الله فى همم جميع القائمين بالعمل فى معهد الموسيقى الشرقى الفخم وجزاهم عن هذا الفن وأهله وعشاقه أحسن الجزاء

ونعود الآن إلى ما يعنى به الصوفية فى مصر من فنون الموسيقى ، فنقول إنهم درجوا منذ القديم على أن يبدأوا مجالس الذكر ( لا إله إلا الله ) وتعرف عندهم بالأرضية ويأخذ (الرسيم) الذى هو رئيس المجلس فى التدرج بالذاكرين أثناءها من الراست (الرصد) إلى الدوكه إلى السيكاه إلى الجهركاه (الجركاه) إلى الحجاز ثم الرهاوى فالكردى فالبياتى فالصبا ، وهنا تبدو مقدرة الرئيس فى نقل الذاكرين من نغمة إلى نغمة ، كما تبدو مقدرة المنشدين فى متابعتهم للأنغام والأنشاد منها

والغالب فى الأنشاد على الأرضية أن يكون من كلام الصوفية كقولهم

إلهى توسلنا بجـاه محمـــد نبيك وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التى إليها قلوب الأولياء تسارع

إلى آخر القصيدة

ثم ينفرد رئيس المنشدين بعد الوصول إلى نغمة الرصد أو إلى النغمة التى ينتهى عندها إنشاد القصيدة بالاستغاثة ( أغثنا أدركنا يارسول الله ) ثم يقول الموال من نفس النغمة ، فالأبيات التى سينشدها عند قيام المجلس من نفس النغمة أيضا ، ينشدها على الأرضية مقطعة ، وعند قيام الذاكرين يكرر الأبيات بالطريقة المألوفة ، ثم ينفرد بعد ذلك بالمقطعات والقصائد والرقائق وما إليها من كلام الصوفية

وقد يستبيح بعضهم أن ينشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها وردودها المعروفة على مجلس الذكر ، ولكن هذه طريقة قاهرية محضة ، ويكاد لا يتبعها إلا رجال

الطريقة الليثية أصحاب الفضل على هذا الفن وأساتذة مبرزيه وحملة ألويته فى القاهرة منذ مئتى عام

ولا يدهشك أن تعلم أن جميع الذين اشتهروا فى عالم الموسيقى بالقاهرة تخرجوا على مجالس الذكر أولا ثم اتخذوا الغناء بعد ذلك احترافا، وإنما وصلوا إلى قمة الشهرة فى مجالس الذكر الصوفية أولا

ونستطيع أن نذكر من هؤلاء :—

المرحوم عبده الحامولى — المرحوم محمد عثمان

المرحوم الشيخ خليل محرم — المرحوم الشيخ المسلوب

المرحوم الشيخ سلامه حجازى — المرحوم الشيخ سيد درويش

المرحوم الشيخ يوسف المنيلاوى

ومن كبار المنشدين الذين لم يحترفوا الغناء على الآلات بصورة دائمة المرحوم الشيخ الشلشمونى والمرحوم الشيخ الحويحى والمرحوم الشيخ عبدالله الأودى

وقد قصرت الذاكرة عن الوصول إلى أسماء الطبقة السابقة لهذه الطبقة .

هذه صورة موجزة مصغرة لما كانت عليه الموسيقى الشرقية عند الصوفية إبان قرن من القرون الماضية

ولقد بلغ من افتنان الصوفية بالموسيقى أن أحدهم نظم أرجوزة ضمنها كل مايتعلق بالموسيقى . أذكر منها مايلى

الحمد لله ولى النعم — من خصنا منها بعلم النغم

الرصد أصل الأصل يامن أصلا — فروعه البزرك ثم الزنكلا

أما العراقى خص بالفرعين — منه الرهاوى مع الحسينى

والزر فكند مابه تشكيك — فروعه المايا وبوسليك

والأصفهانى رابعا وما حوى — فروعه العشاق حقا والنوى

وكان المشتغلون منهم بالفن يحفظون هذه الأرجوزة عن ظهر قلب كما يحفظون أوراد مشايخهم وأحزابهم

أما أناشيدهم وأما موشحاتهم وقصائدهم فمبعثرة فى بعض الكتب المطبوعة والخطية ، فعسى أن يوفق الله من يضع للموسيقى عند الصوفية سفرا كاملا يحوى مفاخرهم وفنونهم وأقوالهم طوالة عصور ضيافة هذا الفن الجميل عليهم

ومن أظرف ما أحفظه عن مشايخى رواية وتلحينا وأداء موشح رهاوى ضربه مصمودى

ماس وانثنى ثملا يختال تحت البرد
أخجل القنا ميلا بلين ذاك القـــد
كالغصن مالا يشبه الغزالا قداً واعتدالا

دور

لحظه بنا فعلا فعل الحسام الهندى
فهو إن رنا قتلا بنصل ذاك الحد
قد سطا وصالا يرشق النبالا كم دم أسالا

دور

يا كل المنى لم لا ترعى ذمام الود
صرت فى الضنى مثلا وذقت كل الجهد
أنعم قال لالا تطلب المحالا ارقب الهلالا

دور

قلت من جنى أملا من ورد ذاك الخد
عنده الهنا كملا ونال جل القصد
رق لى وقالا من يهوى الجمالا لايحمل النكالا

دور المديح

صلى ذو الحنا ن على حاوى لواء الحمد
من منه لنا وصلا كل الهدى والرشد
دائما ووالى صحبه وآلا أحرزوا الكمالا

هذه صفحات من صفحات الماضى القريب ، أسأل الله أن تكون مرآة يتعرف فيها من يحاولون النيل من كفاية فنون الموسيقى الشرقية وأصولها وفروعها وأنغامها لأداء كل حاجة تعرض للنهوض بهذا الفن الجميل نهضة تتابع نهضات العصر الحاضر من جميع النواحى

أما الصوفية فهم كما كانوا فى كل آن ومكان قانعون بميراثهم العظيم من هذا الفن الجميل ، ولكنهم يودون لو أتيح لهم التجديد فى بعض جوانبه بما لا يهدم أصلا ولا يقطع فرعا ولا يمجه السمع ولا يأباه الذوق ولا تنكره آداب الأسلام ؟

الحنفى بمصر محمد الغنيمى التفتازانى

## استفتاء عام

### موجه لحضرات القراء والقارئات

(١) ماهى الأسباب الحقيقية لأزمة الزواج ؟ وماهى الطرق التى تعالج بها ؟

(٢) ماهو الزى الذى تفضله ؟ ولماذا ؟ و إذا كنت من القائلين بتوحيده فأى نوع منه تختار ؟ و إذا كنت ترى إدخال تعديل عليه فما هو ذلك التعديل ؟

(٣) ماهى ملاحظاتك على هذه المجلة ( المعرفة ) وماهى الموضوعات التى ترى فائدة من طرقها ؟ وماذا يروقك منها على وجه أخص ؟

توجه مجلة المعرفة إلى حضرات قرائها وقارئاتها هـذه الأسئلة الثلاثة ، وللجميع الحق فى الرد على بعض أو كل منها ، وستنشر الأدارة ما تراه نافعا من الردود التى ترد عليها ؟

الأداره